دراسات فى الفن

الحب والمرأة والفن

للأستاذ عزيز أحمد فهمى

جانب كبير جداً من الفنون يدور حول الحب

ولا عجب فى هذا ، فالحب عاطفة تشترك فى تخليقها عدة غرائز من أقوى الغرائز التى يقوم بها كيان النفس الإنسانية وهى مبعث المواطف . ومن هذه الغرائز التى تخلق الحب فى النفس : غريزة حفظ النوع ، وغريزة السيطرة ، و « غريزة العشرة » وهى أخص وأعنف من غريزة الاجتماع ، و « غريزة الوثنية » التى تنزع بالإنسان إلى تجسيد ما يصبو إليه وتحديده والتى تخرج به من إبهام المتجرد إلى وضوح الملموس ، وهى غريزة لم تضعف إلا عند الذين يدمن إحساسهم التدريب على الاتجاه نحو معان

عندما نقول إن الجسم الحى هو عبارة عن توازن فيزيقى ـ كيميائى[1] ذى قوة حيوية يحصل بين المواد الموجودة فى داخل الجسم، وبين أخواتها فى الخارج . ويفهم من كل هذا أن الهواء الذى نستنشقه بل كل الطبقة الهوائية المنتشرة على سطح الأرض والتى يتوقف عليها مقدار كثافة الأكسجين هى جزء لازم لكيان الأجسام الحية تزوم العظام واللحم الذى يكسوها ، وهو ليس كذلك للجمادات . إذاً فالفرق بين هذه ، وبين الكائنات الحية موجود ، وهو التوازن الرقيق الذى تقيمه الطبيعة بفعل قواها فى المواد الأولية ـ ذلك التوازن الذى لا يوجد له شبيه فى عالم الجمادات .

« بيروت ـ الجامعة الأمريكية » عبد الله عشرى الصديق

(١) Physico-chemical

يحبونها ويدهش لهم العالم ويتساءل : كيف يحبونها ؟

وهذه الغرائز التى تخلق عاطفة الحب كل منها قوى عنيف . ونفس الفنان بطبعها أكثر طواعية للتأثر من غيرها لأنها أشد حساسية من غيرها . وإذا كانت نفس الفنان تلبى سرعة نداء المؤثرات الخارجة عنها فأجدر بها أن تستجيب للفتاة المدوى فى جنباتها . فلا غرابة إذن أن يزدهر الحب بين أهل الفن أكثر مما يزدهر بين غيرهم ، ولا غرابة بعد ذلك إذا دار جانب كبير جداً من الفنون جميعاً حول الحب ، فليست نفس أخرى أقرب إلى نفس الفنان من نفسه ، وليس أحب إليه منها ، وليس أجدر منها بالالتفات الذهنى والحسى ، وليس أشد منها وضوحاً لديه ، وليس شىء أبعث منها على التسجيل

ولكن الذى نلحظه هو أن جانباً كبيراً جداً من فنون الحب ينم بالشكوى من هذا الحب ، ويرضخ بالذل له ، ويستعطفه متشفعاً إليه بالفن ذاته ، كما أننا نرى فى هذه الفنون المكلومة كثيراً مما يشبه علامات اليأس ، وقد نرى منها قليلاً مما يشبه علامات التمرد الذى يعقب اليأس ، إذ ينكر بعض الفنانين الحب إنكاراً ، وإذ يسخر بعضهم من المرأة سخرية شاذة لا أصل لها فى الطبيعة ولا شبيه لها فى حياة الحيوان

وهذا يشهد بأن الفنانين فاشلون فى حبهم ، أو هو يشهد على الأقل بأن كثيرين جداً من الفنانين يفشلون فى حبهم . فما الذى يدعو إلى هذا ؟ أهو قصور فى رجولة هؤلاء الفنانين ؟ أم هو التواء حاد بنفوسهم عن المسلك الطبيعى الصحيح الذى يجب أن يسلكه الذكر مع الأنثى ليقنعها بنفسه ؟ أم هو انحراف عن أساليب الأرض إلى أسلوب جديد بعيد تسعى الحياة إلى استكناهه وستأخذ به يوماً ولكن بعد أن يكون هؤلاء الفنانون قد ركلوا الأرض إلى عالم يرتاحون فيه ولا يشقون ؟ أم هو هذا كله مزيجاً مركزاً ؟

الطبيعة وحدها هي التي تهدينا إلى سر هذه المشكلة . وإذا كانت حياة الإنسان قد تشابكت من نواح ، وتحللت من نواح ، وعقدت الحضارة أغلب أطرافها وأوساطها بحيث لم يعد من اليسور لكل عين أن تميز الأصيل في أفعال البشر من الدخيل عليها ، فإن لنا في حياة الحيوان ما يدلنا بوضوح وجلاء على طريقة اتجاهات الطبيعية التي تجذب الذكر نحو الأنثى ، والتي تجذب الأنثى نحو الذكر . فإذا ما تعلمنا من الحيوان هذه الطريقة عدنا إلى الإنسان الفنان ونظرنا : هل هو يماشي الطبيعة في غرامه أو هو يحيد عنها منحرفاً أو متدلياً أو هائماً على وجهه يتخبط ذات اليمين وذات الشمال؟

وقبل أن نخطو هذه الخطوة يجب أن نجيب عن سؤالين قد يخيل لبعض الذين يصحبونني في جولتي هذه أنهما يعرقلان المضي في مذهبنا ، أو أنهما على الأقل يشوهان هذا المذهب . أما السؤال الأول فناعم خفيف يقول لنا بصوت خافت رقيق : هبكم رأيتم الفنان قد حاد عن طريق الطبيعة التي تزعمون فلماذا تخصونه بالحساب والعتاب من بين الناس وأكثرهم حائد عن هذا الطريق ؟ وإذا كان هو يئن بالشكوى من حبه ، فكثيرون غيره يئنون؛ غير أنه يذيع أنته وهم لا يذيعون ؟! ونحن نجيب عن هذا السؤال فنقول : إن الفنان هو رائدنا إلى الطبيعة؛ وليس يبرر بعده عنها إلا أن يكون هذا البعد قفزة إلى مرحلة من مراحل الرقي الإنساني يسبق بها البشر ليكون فيهم بشيراً بما سينتهون إليه بعد حين . وليس مما يريح ضمير الإنسانية أن ترى الفنان وهو هاديها إلى الحق ومواطن الراحة مضطرباً في حياته الخاصة ، وفي أعز جانب من حياته الخاصة هذه دون أن تعرف علة هذا الاضطراب لعلها تستطيع أن تنقذه منه

وأما السؤال الثاني فيصرخ فينا بعنف ويقول : كيف قررتم أن الحب عند الإنسان يشبه الحب عند الحيوان ، ولم تروا أنه أرق وأشرف ؟ ونحن نرد هذا السؤال بقولنا : إن الحب لا يمكن أن يخرج على حال من حالين : فإما نزوع روحاني لا يصحبه النزوع البدني وهذا شيء لا يعوقه عائق ، ولا تصده عقبة ، ولا يمكن أن يشكو فيه شاك من بُعد أو حرمان أو لوعة أو صبابة أو هجر أو غدر أو غير ذلك مما يشكوه العشاق ، ومما تدور حوله فنون التعبير من الفنانين العاشقين ، فالروح متى رضيت عن روح لم تعد تعبأ بما يفرق بينهما من بعد المكان ، أو بعد الزمان ، ولم تعد تهتم باختلاف الجنس بينهما أو توحده

١٢٠٧٤

إما هذا ، وإما أن يصحب هذا النزوع الروحاني نزوع جسدي وفي هذا تظهر الشكوى ، ويظهر الأنين ، وتظهر فنونهما فلا بد إذن أن يكون النزوع الجسدي هو الذي يسببهما إذا لم يصب التوفيق ، وهذا النزوع البدني موجود عند الحيوان ، ولكنه يصيب التوفيق دائماً ، ولا يفشل مطلقاً إلا عند العدوان حين يندس بين الذكر وأنثاه ذكر جديد قوي غلاب ، وعلى هذا كان من غير الطبيعي في حياة الإنسان أن يفشل الرجل في حبه ما لم يصرعه رجل أقوى منه في الناحية التي تعترف بها الأنثى ، وتنقاد لها.

هذان هما الحالان اللذان يتشكل بهما الحب في حياة الإنسان على الإطلاق . وأرى من المتعة أن أربأ بصورة الحب الإنساني عن الحالة الثالثة التي يتفرد فيها النزوع البدني وحده . لا لأني أريد أن أنجد الإنسان ، ولكن لأني أرى في بعض الحيوان ما يعف عن هذا الحب ويتسامى عليه ، ويجمله بالألفة والمعاشرة ، والحنان والتعاطف . والمُسلم به أن الإنسان أرق من الحيوان .

وبعد ، فإني أحسب أن الطريق قد مهد أمامنا ، وأننا نستطيع أن نخطو فيه خطوتنا الأولى نحو الحب عند الحيوان .

والذي نلحظه هو أن للحيوان غزلاً يشبه الغزل عند الإنسان من حيث إنه دليل الرغبة في إقامة الصلة بين الذكر والأنثى ، ومن حيث إنه الباب الوحيد الذي يؤدي إلى الحب . والمشاهد أن هذا الغزل يتخذ عند الحيوان عادةً شكل الصراع ، ومن الحيوان ما يترفق فيه فيكون صراعه كاللعب والمداعبة ، ومنه ما يشتد فيه ويقسو فيكون صراعه صراعاً حقيقياً تتهشم فيه العظام ، وتسيل فيه الدماء . وهذا النوع الأخير من الصراع يقيم الدليل المحسوس عند الأنثى على أن الذكر الذي يغازلها قوي غلاب ، وعلى أنه يأخذ حقه منها قوة واقتداراً ، وأنه لا تثنيه مقاومتها إياه عن الوصول إلى ما يريده من فرض سلطانه عليها ، والأنثى في هذا الصراع العنيف تبذل أقصى قوتها لتحول بين الذكر وبين التسلط عليها ، لا لأنها تكره أن يتسلط عليها ، ولكن لأنها لا ترضى أن تذل لضعيف قد يعجز عن حمايتها وحماية نسلها إذا اعتدى عليها معتد ، هذا إذا كانا من الحيوان الذي يأتلف ذكره بأنثاه ، أما إذا لم يكونا من هذا الحيوان فهي تكره أن تستسلم للضعيف خشية أن ينتقل ضعفه إلى نسلها الذي تحب أن يكون قوياً غير ضعيف بما ركب في نفسها من غريزة حفظ النوع سليما سالماً .

أما النوع الآخر من الصراع وهو الذي يشبه اللعب والمداعبة فهو أقرب أنواع اللعب والمداعبة إلى المصارعة الإنسانية المصطنعة

التي يقيم الناس لها الملاعب في هذا العصر والتي يكتفي فيها الغالب في التدليل على قوته بإظهار تمكنه من تهشيم خصمه دون أن يهشمه. وهذا الأسلوب تصطنعه الحيوانات الرقيقة، والحيوانات المستأنسة. ومهما خلا هذا الأسلوب من التحطيم والتهشيم والتجريح، فإنه لا يخلو من معانيها، وإن فيه ما يدل دلالة تامة على احترام القوة والاعتراف بلزوم الغلبة والقهر يقيم عليهما الذكر صلته بأنثاه.

فإذا أضفنا إلى هذا ما نراه من تجميل الطبيعة الذكر دون الأنثى: كالديك ازدان بالعرف دون الدجاجة، والأسد تحلى بالمعرفة دون اللبؤة، والكبش ازدهى بالقرنين دون النعجة، والطاووس تبرج بذيله الملون الطويل دون «الطاووسة» ... إذا أضفنا هذا إلى ما تقدم رأينا أن الطبيعة توجه الذكر إلى «مكايدة الأنثى»: قهراً بالقوة، أو اعتزازاً بالجمال، أو قهراً واعتزازاً بالقوة والجمال معاً. ومن هذا يمكن أن ندرك أن الطبيعة قد وضعت ناموساً تقوم عليه الصلة بين الذكر والأنثى، وأن هذا الناموس يستلزم أول ما يستلزم أن يذل الذكر أنثاه، وأن يذكرها دائماً بأنه أقوى منها، أو أنه أقوى وأجل منها.

والطبيعة توفر في هذه السوق التي يتداول الذكر والأنثى فيها نواحي القوة والضعف، ونواحي الزينة والعطل وبقية تلك الزوائد والنواقص فيهما شرطاً لا بد أن يتوفر في هذه السوق: وهو أن تقتنع الأنثى مؤمنة صادقة مجبرة بفضل الذكر عليها فيما يمتازبه، وإلا فالصلة بينهما زائفة، وهو آخذ منها ما يرضيه ويقنعه، إذ لا يعطيها ما يرضيها ويقنعها كما يحدث للحيوانات المسجونة التي تنسل نسلاً ضعيفاً.

اتفقنا في هذا. فلنعرج إذن على الحب عند البشر، ولتكن القبائل التي تعيش على الفطرة أول من نتشارف من البشر. وهذه القبائل لا يزال الرجال فيها يمثلون ما يشبه الدور الذي يمثله الذكر الحيوان مع أنثاه. فالقوقاز لا يسلمون العروس لعروسها، وإنما يدير العروس حملة على محلة عروسه فيهجم عليها في جمع من أهله وأصدقائه، ويختطف عروسه من بين أحضان أهلها بالقوة والعنف ليشهدها وليشهد أهلها على أنه قوي جدير بها، وليسجل عليها هذه الشهادة يذكرها بها طول عمرها معه إذا حاولت أن تتمرد عليه أو أن تطاوله. وبعض قبائل الزنوج تحتفل بزفاف فتياتها احتفالاً أعجب من احتفال القوقاز وأشد افتخاراً بالقوة والجلد والصبر. وإن لم يكن فيه من الشجاعة والفروسية شيء: ذلك أنهم يتداولون على العروس السعيد بالضرب المبرح الموجع، فقدر ما احتمل الضرب وكتم التوجع عز عند صاحبته وزاد احترامها إياه ورأته حقيقاً بالحب: لها بل عليها أن تفاخر به معجبة راضية ... ولا يزال من أهل النوبة الصريين من يفعلون ما يشبه هذا. فالعروس يطلب من صاحبته أن تحضر له جمرة من النار ليشعل بها لفافته، فتحضرها إليه. فيمسك الجمرة بيده، ويضع الجمرة على حجره — تأكل جلده ولحمه ربما يتأنق في لف التبغ في الورق ليشعل بعد ذلك لفافته ويعيد الجمرة إلى مكانها، وبقدر ما يطول احتراق جسده ويشتد يعز عند صاحبته ويعلو قدره

والمرأة القوقازية تحب من يخطفها لأن بيئة القوقاز بيئة رعي ومهاجرة ومحاربة تكثر فيها الغارات، ويكثر فيها الكر والفر ولا يستطيع أن يخطف المرأة فيها إلا البطل. والمرأة الزنجية تحب من يحتمل الضرب الموجع في سبيلها لأن بيئة الزنوج بيئة قاسية تضرب الناس بالحر والبرد والمطر والريح والمرض والسم، فالأشد صبراً من غيره في هذه البيئة هو البطل. والمرأة النوبية تحب الذي يحترق في سبيلها بالنار لأن بيئة النوبة يموت فيها الضعاف من — وهج الحر والقيظ وشدتهما، فالذي يحتمل الحرارة عندهم هو البطل

هذه بيئات إنسانية قريبة من الطبيعة والرجل فيها لا يزال يلوح للمرأة بقوته، والحياة فيها لا تزال مستقيمة بين الرجل والمرأة

أما بيئات الرجولة الخشن فقد ظل الرجال يحرسون عليه زماناً طويلاً كانوا يرسلون فيه شواربهم ولحاهم التي زينتهم بها الطبيعة ولكنهم اليوم لم يعودوا يحافظون عليه، واكتفى فريق من أهل المدنية فيهم بممارسة الألعاب الرياضية لتنمية عضلاتهم وتقويتها كما كان يفعل اليونان القدماء في وقت يذكر التاريخ أن المرأة فيه كانت متيمة بالرجل لأنه اكتسب من رياضته تناسقاً وامتشاقاً انشغل به عن النظر إلى جمال الأنثى —

ولعل هذه الألعاب الرياضية هي البقية الباقية من معالم الرجولة القوية التي تحتفظ بها الحضارة اليوم، ولكنها شيء إذا كسا البدن رجولة أو ما يشبه الرجولة فإنه لا ينفذ إلى الروح والنفس، ولذلك يستعين الرجل المتحضر اليوم على قهر المرأة بالمال أو الجاه أو النفوذ أو المنصب أو الشهرة أو غير ذلك مما يتنافس فيه الرجال المتحضرون. ونحن إذا أنعمنا النظر في هذه الميزات المدنية كلها رأينا أنها لا تتاح إلا الذين يتكالبون على العمل في سبيل الوصول إليها أو الذين يصيبونها عفواً بالوراثة أو بالواسطة؛ أما الذين يفوزون بها عن جدارة فأولئك الذين في حسابنا، وهم

ينفقون فى سبيلها من رجولتهم ما كانت المرأة تحب أن يستبقوه لها فهي لا تستطيع أن تستغنى عن حياة المناوشة والمصارعة وهى تكره أن تبيع نفسها بالمال ، وإن كانت تبيع نفسها بالمال ؛ وهى لا تقنع من الرجل بجاهه وإن كانت ترنمى على أصحاب الجاه ؛ وهى لا ترضى بمنصب الرجل وشهرته وإن كانت تتهافت على أصحاب المناصب الكبيرة والمشاهير ، فهى تنحرف عن طبيعتها مجاهدة مستعيضة بهذه البهارج عما كانت تتوق إليه من قوة الرجل ورجولته . ولعل حوادث الخيانة الزوجية التى تتعدد وتتكاثر فى المدنيات دليل قاطع على أن الزوجات ساخطات على الأزواج ، وأنهن لا يزلن يبحثن عن الرجولة الضائعة فى هذه الحضارة

وإذا كانت المرأة تكره المال والجاه والنفوذ والمناصب العالية وما فيها من أبهة ولا تقبل عليها إلا على سبيل البدل عن مطلبها الطبيعى ، وإذا كانت لا تزال تحب أن ترضى طبيعتها بين يدى من يذلها برجولته ومن يتقن فنون المنازلة والمصارعة على ألوانها فماذا هى صانعة عند الفنان أو ماذا هو صانع بها ؟

الفنان تسيطر عليه الغرائز التى تسيطر على بقية الناس فهو إنسان مثلهم . ولكن هذه الغرائز لا تشتد به ـ حين تشتد ـ كما تشتد ببقية الناس ، ولا تترفق به ـ عند ما تترفق ـ كما تترفق ببقية الناس ، فهو وإن كان يحب أن يحفظ النوع البشرى كما يحب الناس أن يحفظوه فإنه يسمى إلى ما هو أشرف من حفظ النوع وهو ترقية النوع ، والفنان يؤدى لهذا النوع بفنه ما يجاهد النوع دهوراً فى سبيل الوصول إليه . وهو وإن كان يحب السيطرة كما يحبها بقية الناس فإنه يتمتع من السيطرة بما لا يتمتع به أحد ، ففنه يلوى عنده الأعناق ويخفض بين يديه الرؤوس ؛ فإذا لم يوفق إلى هذا فى حياته فهو على إيمانه بفنه مؤمن بأن البشرية التى غفلت عن تقديره وهو فيها ستنال جزاءها إذ تنصاع يوماً إلى قبره لتطوف بالتقديس حول عظامه ولو بعد أن ينخرها السوس ؛ وإنه ليرى ذلك وهو فى ظل العرش . وهو وإن كان يحب الشهرة كما يحبها بقية الناس فهو يتأنق فى اختيار عشرائه من المعانى والأخيلة والأفكار التى يرصد لها انتباهه وإحساسه ويتعمقها ويتبختر عندها مترنحاً منتشياً كراهبة ترقص فى خلوتها على نغم الذكر عابدة لا فاجرة ، خالصة غير مشوبة

هذه هى الغرائز التى كان حقها أن تشترك فى تخليق الحب فى نفس الفنان كما تخلقه فى نفوس بقية الناس ، ولكننا قد رأيناها جميعاً تعدل عن الحب إلى الفن

وبقيت بعد ذلك « غريزة الوثنية » التى ذكرتها فى بدء هذا الحديث ، وأحسبنى قلت إنها لم تضعف إلا عند الذين يهد من إحساسهم التدريب على الاتجاه نحو معان يحبونها هم ، ويدهش لهم العالم ويتساءل : كيف يحبونها؟ ومن يكون هؤلاء غير الفنانين؟

إذن فالفنانون على هذا الأساس لا يحبون ! وعلة انصرافهم عن الحب بعيدة كل البعد عن الأسباب التى توقعناها فى أول حديثنا ، فقد خيل إلينا أن عجزهم عن الحب قد يرجع إلى قصور فى رجولتهم ، أو التواء حاد بنفوسهم عن مسلك الحب الطبيعى الصحيح ، أو انحراف عن أساليب الأرض إلى أساليبهم الجديد

ولكننا رأيناهم فى أول حديثنا يحبون . وقد سجلنا عليهم فشلهم فى الحب من بعد تسجيلهم إياه على أنفسهم فى فنونهم ... فهل هم يحبون أو هم لا يحبون ؟ ... أحبهم الله !

الواقع أنهم يحبون ولا يحبون . فالفنان إنسان حائر بين حلقتين من حلقات التطور البشرى . أولاهما الحلقة التى يعيش فيها ، والأخرى الحلقة التى ينتقل إليها بروحه ويستنبطها فنه ثم يعود بعد ذلك إلى ناسه . وهذه الحلقة التى يُسرى به إليها ستتحقق يوماً ما فى الأرض سواء أكان هذا اليوم قريباً أم بعيداً وسيعيشها الناس وكلهم فى مستوى ذلك الفنان الذى يبهر جيله وسيكون من بينهم فنانون يبهرونهم بما يستنبطونه من حلقات أخرى لا يسرى به إليها غيرهم . وقد ينكر هؤلاء وقد يعترف بهم ... أمرهم وأمر الحق إلى الله

هذا هو مسلك التطور الروحانى للانسانية فهو (كالداروينية) الجسدية ولكنه أشد غلياناً وإبهاماً

والفنان يتذبذب بين الأرض وسمائه يتلون بلونين ويتشكل بشكلين : شكل يلائم حياة الأرض بقدر ما تسمح ذمته الفنية أن يتسامح فى أمانته ، وشكل آخر لا يلائم إلا الذين يستطيعون أن يطيروا معه إلى سمائه ولو أتباعاً مسترشدين به . والفنان السعيد الذى يرضى الله عنه هو الذى يوفق إلى غرام واحدة من بنات السماء . والفنان المنكوب الذى أرجو له الرحمة هو الذى يتعلق به غرام واحدة من بنات الأرض : تثقل به وتعرقله عن قفزاته فإن أشفقت عليه وسمحت له بهجرتها إلى السماء كلما شاء لم يجد عندها حين يهبط إليها إلا ما اختص به الله بنات الأرض . فهو شقى معها كشقاء المقعد الذى يلهب طافية ظهره بالسياط ليجرى فى سباق مع صبيان خفاف شياطين ... وإن كان المثلان متماكسين